الماء والمجال الجغرافي
في مكة المكرمة

إعداد

د. عزالدين بنسالم جسوس

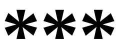
كلية الآداب والعلوم الإنسان الجديدة– المغرب

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

بدل أهل مكة جهودا مضاعفة لتوفير الماء لأنفسهم وللحجيج. وفي المجال الجغرافي الذي توجد فيه مكة المكرمة كان السبيل للحصول على الماء هو حفر الآبار تحت الدافع نفسه الذي دعا إلى حفر بئر زمزم. فتنافست القبائل قبل الإسلام في حفر الآبار، حيث كان ذلك يعد إنجازا مميزا في حياة القبيلة. ومع مجيء الإسلام واصلت السلطات الإسلامية البحث عن موارد مائية فسامرت في حفر الآبار مع حفر العيون التي استغلت في سقي أراض غدت بساتين منتجة. وكان لأهمية الماء في المجال الجغرافي لمكة المكرمة أثر على عقلية الملكيين وثقافتهم ؛ فسجلت الآثار الأدبية من رجز وقصيد كثيرا من المفاخرات والمنازعات حوله.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

لم نجد أفضل من الآية القرآنية الكريمة لدعاء إبراهيم في التقديم لهذا البحث؛ فهي آية تجمل بالإعجاز القرآني جميع جوانب هذا الموضوع[١] الذي ترتبط فيه علاقة الماء بالمجال الجغرافي المكي؛ الذي كان مأوى لبيت الله الحرام :" ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من ا لناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون".[٢]

لا يمكن لأي تجمع بشري أن ينشأ في أي مجال جغرافي معين دون توفر الماء فبالماء تقوم الحياة وبه تكون وحوله يتجمع الإنسان و بانعدامه يستحيل تصور أي ارتباط بين الإنسان والمجال. بل لا تكون هناك حياة من غير ماء مصداقا للآية الكريمة : "وجعلنا من الماء كل شيء حي."[٣]

" بواد غير ذي زرع" إن فقدان الزرع أو الغطاء النباتي بأي مجال أرضي يعني عدم وجود الماء، وهو ما وصف به إبراهيم وادي مكة الذي أقام فيه وبنى فيه الكعبة. ورغم وجود ماء زمزم [٤] فإن الأمر لم يكن يحل مشكلة

١- عمدنا في هذا البحث إلى دراسة موضوع الماء والمجال في مكة المكرمة إلى غاية القرن الثالث الهجري نظرا لتركز المادة التاريخية القليلة في هذه الفترة. ثم إن البحث في الموضوع في الفترات التالية يتطلب دراسة أطول لا يسمح بها المقام.

٢- سورة إبراهيم، الآية ٣٩.

٣- سورةالأنبياء، الآية ٣٠.

٤- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت، دار الرشاد الحديثة،بدون تاريخ،ج ١، ص ١٤٤- ١٤٦؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو =

الطابع الجغرافي بالمنطقة لتحويلها إلى منطقة زراعية، ولعل هذا ما جعل إبراهيم الخليل يصوغ الشطر الثاني من الدعاء الذي يدل على نباهة وإحساس بإمكانية تحول هذه المنطقة القاحلة إلى مكان تفد إليه أعداد كثيرة من الناس وتأتيه الخيرات من كل مكان، وهو ما نعود إليه فيما بعد. ومما لاشك فيه أن تزايد السكان بمقام إبراهيم النواة الأولى لتجمع السكان بمكة– نظرا لوجود الماء ونظرا لوجود الكعبة– أمر دعا أهل البلد بعد ذلك إلى البحث عن مصادر أخرى للمياه لتغطية النقص الحاصل في هذا المورد الحيوي.

أولا– الموارد المائية بمكة المكرمة:

١– الأبـــار:

لا توفر لنا المصادر معلومات عن الظروف والملابسات التي كانت تحيط بعملية البحث عن الماء، غير أنه يتضح من خلال عدد الآبار التي ذكرت في المصادر أن سكان مكة كانوا لا يألون جهدا في توفير هذا العنصر الحيوي سواء لاستهلاكهم الشخصي أم لحياتهم بصفة عامة أم بالنسبة للحجيج الذي كان يفد على المدينة في أوقات معينة. وقد تم التركيز على حفر الآبار لأنه الحل الوحيد لتوفير الماء لساكنة المجال الجغرافي المكي. وتورد المصادر التي نتوفر عليها أسماء مجموعة من الآبار يشير عددها إلى وتيرة

=

الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط. ٤، بدون تاريخ، ج. ١، ص ٢٥٢- ٢٥٩؛ الفاسي تقي الدين محمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/١٩٨٦، ج ١، ص ٩٠.

البحث عن الماء، وإلى أن منطقة مكة بمناخها[١] وطبيعتها الجغرافية كانت بحاجة متزايدة لهذا المورد الحيوي. ومما لاشك فيه أن النمو الديمغرافي وقدسية المكان التي تطلبت وفود الحجيج بعدد يفوق في جل الحالات أعداد السكان المحليين، دفع مختلف القبائل المكية وفيما بعد السلطة الإسلامية إلى توفير الماء بالمدينة. ويوضح الجدول التالي الآبار، ويسميها البلاذري "الحفا ئر "[٢]، التي تم حفرها في مكة سواء خلال فترة ما قبل الإسلام أم عند الفترة الإسلامية إلى غاية القرن الثالث الهجري :

ا– أبار فترة ما قبل الإسلام:

اسم البئر	صاحبها	القبيلة التي تمتلكه
كرآدم المفجر	آدم	–
الروي	مرة بن كعب[٣]	
رم	مرة بن كعب بن لؤي[٤]	–
خم	كلاب بن مرة	بنو كلاب بن مرة وقيل لبني مخزوم[٥]
العجول	قصي بن كلاب[٦]	

١- بخصوص مناخ مكة انظر دراسة أحمد بدر الدين يوسف، مناخ مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٩٢.

٢- فتوح البلدان، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢/١٩٩٢، ص ٥٥.

٣- البلاذري، فتوح، ص ٥٦.

٤- ابن هشام ج١ ص ١٤٩- ١٥٠؛ الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصلح ملحسن، بيروت، دار الأندلس، ١٤٠٣/١٩٨٣، ج٢ ص٢١٤ البلاذري، ص ٥٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٤٠٤/١٩٨٤، ج٣، ص٧٠ وج٢، ص ٣٨٩ .

٥- ابن هشام، ج ١ ص١٥٠؛ الأزرقي، ج٢ ص ٢١٤.

٦- الأزرقي، ج ٢، ص ٢١٥؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٦ ؛ ياقوت، ج٥، ص٨٧- ٨٨.

اسم البئر	صاحبها	القبيلة التي تمتلكه
بئرمن غير اسم	قصي بن كلاب اندثرت ثم أحياها جبير بن مطعم[١]	
بذر	هاشم بن عبد مناف ويقال أن قصيا حفرها[٢]	بنو عبد الدار[٣]
سجلة ويقال لها أيضا بيرجبير بن مطعم بن عد ي	هاشم بن عبد مناف	بنو نوفل[٤]
الطوي	عبد شمس بن عبد مناف	بنو عبد شمس[٥]
خم ورم	عبد شمس بن عبد مناف[٦]	—
الجفر أو الحفر	أمية بن عبد شمس وقيل مرة بن كعب وقيل كلاب بن مرة وقيل عبد شمس بن عبد مناف.	بنو تيم بن مرة[٧]
ام جعلان	—	بنو عبد شمس[٨]
بئر العلوق	—	بنو عبد شمس[٩]
شفية وتسمى أيضا	عقيل بن أبي طالب ويقال أنها	بنو أسد بن عبد العزى[١]

١- الأزرقي، ج ٢ ص ٢١٤.

٢- ابن هشام، السيرة، ج١ ص ١٤٨؛الأزرقي، ج ٢ص ٢١٦ ؛ ياقوت ،ج١ ص٣٦١.

٣- ياقوت، ج١ ص٣٦١.

٤- ابن هشام ، ج ١ ص ١٤٨؛ الأزرقي، ج٢، ص٢١٧؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٦ و ٥٨؛ياقوت، ج٣ ص١٩٣

٥- ابن هشام، السيرة، ج ١ ،ص ١٤٨؛ الأزرقي، ج٢ ص٢١٧- ٢١٨؛البلادري، فتوح، ص٥٦؛ ياقوت، ج٤ ص٥١.

٦- حسب ما يورده البلاذري، فتوح، ص٥٧ حفر عبد شمس هذين البئرين وسماهما خم ورم على ماسمى كلاب بن مرة بئريه، وانظركذلك ياقوت،ج٢ ،ص، ٣٨٩.

٧- ابن هشام ، ج ١ ص ١٤٩؛ الأزرقي، ج٢ ص وص ٢١٨ وص ٢٢٠- ٢٢١ وص ٢٢٢؛ البلاذري،فتوح، ص ٥٧ ياقوت، ج٢ ص١٤٧.

٨- الأزرقي، ج٢ ص٢١٨.

٩- نفسه.

اسم البئر	صاحبها	القبيلة التي تمتلكه
بئر الأسود	كانت للأسود بن البختري	
السنبلة	خلف بن وهب	بنو جمح[٢]
أم حردان	ـ	بنو جمح[٣]
رمرم	ـ	بنو سهم[٤]
السيرة أو اليسيرة	مرة وقيل لؤي بن غالب[٥]	ـ
الروا	مرة بن كعب[٦]	ـ
ميمون	ميمون بن الحضرمي[٧]	
أم أحراد	ـ	بنو عبد الدار[٨]
السنبلة	بير خلف بن وهب	بنو جمح[٩]
الغمر	ـ	بنو سهم[١٠]
الحفير	بنو عدي	بنوعدي[١١] وينسب أيضا لبني تميم[١٢]
السقيا	هاشم بن المغيرة	بنو مخزوم[١٣]

=

١- ابن هشام، ج ١ص ١٤٩؛الأزرقي، ج ٢ ص ٢١٨؛ ج٢ ص٢١٨- ٢١٩ و ص٢٢٢ وص٢٢٤ ؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٧ و ص ٥٨؛ياقوت،ج٣، ص٣٥٣..

٢- الأزرقي، ،ج٢ ص٢١٩ ؛ ياقوت، ج٣؛ ص٢٦١.

٣- الأزرقي، ج٢ ص٢١٩.

٤- نفسه.

٥- نفسه؛ البلاذري، فتوح، ص٥٥- ٥٦.

٦- الأزرقي، ج٢ ص٢٢٠؛ البلاذري، فتوح،ص٥٦.

٧- الأزرقي، ج٢ ص ٢٢٢؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٧.

٨- ابن هشام، ج ١ ص ١٤٩؛ الأزرقي، ج٢ ص٢٢٢ ؛ البلاذري، فتوح، ٥٧.

٩- ابن هشام، ج ١ ص ١٤٩؛الأزرقي،ج ٢ ص ٢٢٢؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٧.

١٠- نفسهم؛ ياقوت، ج٤ ، ص ٢١١.

١١- البلادري، ص ٥٨.

١٢- ياقوت، ج ٢، ص ٢٧٧.

١٣- الأزرقي، ج ٢ ، ص٢٢٢- ٢٢٣؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٨؛ ياقوت،ج ٣، ص ٢٢٧.

اسم البئر	صاحبها	القبيلة التي تمتلكه
الثريا	عبد الله بن جدعان	بنو تيم بن مرة[١]
النقع	ـــ	بنو عامر بن لؤي[٢]
ركايا قدامة	قدامة بن مظعون[٣]	ـــ
حويطب	حويطب بن عبد العزى[٤]	ـــ
خالصة	ـــ	ـــ[٥]
زهير[٦]	ـــ	ـــ

١- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٣؛ البلاذري، ص ٥٨؛ ياقوت، ج ٢، ص ٧٧.

٢- نفسهما ؛ ياقوت، ج ٥، ص ٣٠٠.

٣- الأزرقي، ج ٢ ، ص ٢٢٤.

٤- الأزرقي ، ج ٢ص ٢٢٤؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٨؛ وشير ابن هشام في معرض بيت شعري إلى بئرين آخرين هما: جراب و ملوك، ج ١ ، ص ١٤٨.

٥- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٤؛ تضطرب المعلومات عن هذا البئر؛ فالأزرقي يذكرها ضمن الآبار التي حفرت قبل الاسلام ويضيف أن خالصة مولاة الخيزران هي التي نثلتها في الفترة الاسلامية ، أما البلاذري، ص ٥٩ فيشير إلى وجود بئر تسمى بئر خالصة مولاة أمير المؤمنين المهدي.

٦- الأزرقي، ج٢ ص ٢٢٤.

ب – مواضع الآبار[١] قبل الاسلام

اسم البئر	موضعه
كرآدم المفجر	شعب حواء[٢]
الروي	وهي مما يلي عرفة[٣]
خم	عند الردم[٤]
رم	موضعها "عند طرف الموقف بعرنة قريبا من عرفة [٥]، "عند دار خديجة بنت خويلد.[٦]
العجول	موضعها "دار أم هاني بنت أبي طالب بالحزورة (والحزورة عند باب الوداع) [٧]
بئر من غير اسم	موضعها "خلف دار آل جحش بن رياب الأسدي التي يقال لها دار أبان بن عثمان وعندها مسجد يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه[٨].

١- للمزيد من التفصيل في مواضع هذه الآبار سواء قبل مجيء الاسلام أم بعده انظر بالأخص ما يقدمه رشدي الصالح ملحسن في تحقيقه لأخبار مكة للأزرقي ج ٢، ص ٢١٤- ٢٢٧؛ وقارن أيضا بما يقدمه سليمان عبد الغني مالكي الذي يهتم فقط بالآبار الإسلامية في مؤلفه: مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة من السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، الرياض، ١٩٨٧/١٤٠٨، ص ص ٥٩- ٦٢. وقد تم التركيز بالأساس في تحديد مواضع هذه الآبار على ما تقدمه المصادر الأساسية بهدف التعرف على التسميات التاريخية لهذه المواضع في الفترة التي تناولناها بالبحث.

٢- الأزرقي، ج ٢، ص ٢١٤.

٣- البلاذري، فتوح، ص ٥٦.

٤- البلاذري، ص ٥٦.

٥- الازرقي ج٢/٢١٤

٦- البلاذري، فتوح، ص ٥٧

٧- نفسه، ج ٢، ٢١٥ .

٨- الازرقي ج ٢ ص ٢١٥- ٢١٦.

بذر	موضعها في حق المقوم بن عبد المطلب في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة في أصل المستنذر[١]. وهي عند الخندمة في شعب أبي طالب.[٢]
سجلة	دخلت في دار أمير المؤمنين التي بين الصفا والمروة في أصل المسجد الحرام التي يقال لها دار القوارير أدخلها حماد البربري حين بنى الدار للرشيد هارون أمير المؤمنيين[٣].
الطوي	"موضعها في دار ابن يوسف بالبطحاء[٤]. بأعلى مكة.[٥]
الجفر أو الحفر	" وهي في وجه المسكن الذي لبني عبد الله بن عكرمة المخزومي بطرف أجياد الكبيرو اشترى ذلك المسكن خادم زبيدة فأدخله في المتوضأة التي عملها على باب أجياد الكبير".[٦]
بئر أم عجلان	"موضعها داخل في المسجد الحرام"[٧].
بئر العلوق	"بأعلى مكة عند دار أبان بن عثمان"[٨].
شفية	"موضعها في دار أم جعفر"[٩].
السنبلة	"في خط الحزامية بأسفل مكة ، قبالة دار الزبير بن العوام يقال لها اليوم بئر أبي". [١٠]

١- الأرزقي ج ٢ ص ٢١٦.
٢- البلاذري، فتوح، ص ٥٦.
٣- الازرقي ج ٢ ص ٢١٧؛ البلاذري، فتوح، ص٥٦.
٤- الأزرقي ج ٢ ص ٢١٨.
٥- البلاذري، فتوح،ص ٥٦.
٦- الأزرقي، ج ٢، ص ٢١٨.
٧- نفسه، ج ٢ ص ٢١٨
٨- الأزرقي، ج ٢ ص ٢١٨
٩- نفسه، ج ٢ ص ٢١٩
١٠- نفسه، ج ٢ ص ٢١٩.

بئر أم حردان	"عند ردم بني جمح" .[١]
بئر رمرم	"يقال إنها دخلت في المسجد الحرام حين وسعه أبو جعفر أمير المؤمنين في ناحية بني سهم" .[٢]
بئر الغمر	لم يذكر موضعها [٣]
بئر السيرة	"خارجة من الحرم" في بواديها [٤]
بيرالروا	"خارج الحرم المكي و هي في بواديها مما يلي عرفة" ، ٢٢٠ ج ٢
بئر ميمون	يشير ياقوت إلى أن بئر ميمون يوجد في موضع يسمى رباب.[٥]
بئر أم احراد	" "
بئر الثريا	" "
بئر النقع	" "
ركايا قدامة	حذاء أضاة النبط بعرنة في شقها الذي يلي مكة قريبا من السيرة[٦]
حويطب	في بطن وادي مكة بفناء دار حويطب[٧]
خالصة	–
زهير	بأجياد في دار زهير بن أبي أمية بن مغيرة المخزومي[٨].

١- الأزرقي، ج ٢ ص ٢١٩
٢- نفسه .
٣- نفسه، ج ٢، ص ٢٢٢.
٤- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٠
٥- ياقوت، ج ٣،ص ٢٣.
٦- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٤.
٧- نفسه.
٨- نفسه.

ج – الآبار الإسلامية:

اسم البئر	صاحبها او من قام بحفرها	القبيلة التي تمتلكها
الياقوتة	ابوبكر الصديق[١]	
عمرو	عمرو بن عثمان بن عفان[٢]	
عمرو	نسبت إلى عمروبن عبد الله بن صفوان الجمحي[٣]	
الشركاء		بنو مخزوم[٤]
عكرمة	نسبت إلىعكرمة بن خالد بن العاصي[٥]	–
الصلا	الأسود بن سفيان المخزومي[٦]	–
الأسود	تنسب أيضا مثل بئر الصلا للأسود بن سفيان بن عبد الأسد الخزومي[٧]	
الطلوب	عمرو بن عبد الله الجمحي[٨]	
أبي موسى	أبو موسى الأشعري[٩]	
شوذب	مولى معاوية بن أبي سفيان[١٠]	

١- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٤.

٢- نفسه.

٣- نفسه؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٨.

٤- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٤.

٥- نفسه؛ البلاذري،فتوح، ص ٥٨

٦- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٥.

٧- البلاذري، ص ٥٨- ٥٩.

٨- الأزرقي، ج ٢، ص٢٢٥.

٩- الأزرقي، ج ٢، ص٢٢٥.

١٠- نفسه؛ ؛ البلاذري، فتوح، ص٥٨.

اسم البئر	صاحبها او من قام بحفرها	القبيلة التي تمتلكها
بير من غير اسم	الوليد بن عبد الملك[١]	
البرود	خراش بن أمية الخزاعي[٢]	
بكار	بكار هذا رجل من أهل العراق[٣]	
وردان	وردان مولى المطلب بن أبي وداعة[٤]	
الصلاصل[٥]	—	—
السقيا	عبد الله بن الزبير بن العوام[٦]	
من غير اسم	أبو العباس عبد الله أمير مكة[٧]	
من غير اسم	زينب بنت سليمان بن علي[٨]	
بئرين من غير اسم	سليمان بن مهران[٩]	
بئر من غير اسم	الخليفة المهدي[١٠]	
من غير اسم	أمير مكة[١١]	
الجراحية	الوزير علي بن عيسى[١٢]	

١- غباشي، المنشآت المائية، ج ١، ص ٦٩.
٢- نفسه، ص٢٢٦؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٨- ٥٩.
٣- الأزرقي، ج٢، ص ٢٢٦؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٨.
٤- نفسهما.
٥- الأزرقي، ج ٢، ص٢٢٦ ؛ ياقوت، ج ٣، ص ٢١٩- ٢٢٠.
٦- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٧؛ ياقوت، ج ٣، ص٢٢٨.
٧- الأزرقي،ج ٢،ص ٢٠٩؛ غباشي، ج ١، ص٦٩.
٨- الأزرقي، ج ،٢ ص ٢٩١.
٩- غباشي، ج ١، ص ٦٩.
١٠- نفسه.
١١- الأزرقي ج ٢،ص ٢٩١؛ الفاسي ج ٣، ص ٤٣١؛ غباشي، ج ١،ص ٦٩.
١٢- الأزرقي ج ٢،ص ٢٩٤؛ غباشي، ج١، ص ٧٠.

د- مواضع الآبار الإسلامية

إسم البئر	موضعه
الياقوتة	منى
عمرو	منى في شعب آل عمرو
الشركاء	أجياد لبني مخزون
عكرمة	أجياد الصغير في الشعب
الصلا	في أصل ثنية أم قردان
الطلوب	في شعب عمرو بالرمضة دون الميثيب[١]
أبي موسى	بالمعلاة على فم دب بالحجون[٢]
شوذب	عند باب المسجد عند باب بني شهيبة فدخلت في مسجد الحرام حين وسعه المهدي الخليفة العباسي[٣]
البرود	فخ[٤]
بكار	بذي طوي عند ممادر بكار[٥]
وردان	بذي طوي عند سقاية سراج بفخ[٦]
الصلاصل	بفم شعب البيعة عند العقبة وهي عقبة منى[٧]
السقيا	عند المأزمين مأزمي عرفة[٨]

١- الأزرقي ، ج ٢، ص ٢٢٥.

٢- نفسه.

٣- نفسه.

٤- نفسه، ص ٢٢٦؛ أما ياقوت ، ج ١،ص ٤٠٥ ،فيذكر بأن البئر بطرف حرة ليلى.

٥- نفسه، ص ٢٢٦.

٦- نفسه.

٧- نفسه.

٨- نفسه، ص ٢٢٧.

إسم البئر	موضعه
خالصة	بالسقيا في المسيل الذي يفرغ بين مازمي عرفة ومسجد إبراهيم[١]
من غير اسم	مسجد في التنعيم[٢]
من غير اسم	"على باب شعب المتكا"[٣]
بئرين من غير اسم	الشرائع[٤]
بئر من غير اسم	بالقرب من المسجد الحرام.[٥]
من غير اسم	شعب المتكا بأجياد الصغيرة[٦]
الجراحية	الحناطين[٧]

إن المعلومات التي بين أيدينا لا تمكننا إلا في بعض الحالات من التعرف عن كتب على ذلك الترابط الذي كان بين المجال المكي وضرورة توفير الماء، ونعني بذلك الأسباب التي أحاطت بحفر كل بئر من الآبار، من قبيل المعلومات الخاصة بحفر بئر زمزم سواء عند وصول إبراهيم مع زوجته هجر وابنه إسماعيل عليهم السـلام أم عندما حفر البئر بعد ذلك من قبل عبد المطلب. [٨] أو من قبيل ما قام به الوليد بن عبد الملك عندما حفر بئرا بالثنيتين

١- نفسه.

٢- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٠٩؛ غباشي، ج ١، ص٦٩.

٣- الأزرقي، ج ٢، ص٢٩١.

٤- غباشي، ج ١، ص ٦٩.

٥- نفسه.

٦- الأزرقي ج ٢، ص ٢٩١؛ الفاسي ج ٣، ص ٤٣١؛ غباشي، ج ١، ص ٦٩.

٧- الأزرقي ج ٢، ص ٢٩٤؛ غباشي، ج١، ص ٧٠.

٨- الطبري، تاريخ، ج. ١، ص ٢٥٢- ٢٥٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيقي محمد حميد الله، القاهرة دار المعارف، ١٩٥٩، ج. ١، ص ٧٨- ٧٩.

ثنيت الحجون وثنية طوى[١]. وتوفر المعلومات أسبابا عامة لحيثيات عامة دفعت إلى التنقيب عن الماء وحفر الآبار نظرا لتزايد الحاجة إليه وللعنت الذي بات يعانيه أهل مكة من جراء تناقصه،[٢] أو نظرا لذلك للتمايز والتفاضل الذي كان بين القبائل في مجال البحث عن الماء وتوفيره[٣] ؛ و تؤكد ذلك نسبة أسماء الآبار إلى مختلف القبائل التي حفرتها حيث كان يعتبر ذلك إنجازا عظيما يعزز كيانها ووجودها ومكانتها بين القبائل، وشكل ذلك مادة تفاخر أدبي في الرجز والشعر. ويأتي الكلام عليها في هذا العرض.

على أن الحقبة الإسلامية تسجل تراجع نسبة أسماء الآبار إلى القبائل وتسميتها بها فباستثناء ذكر بني مخزوم أصحاب بئر الشركاء تغيب الإشارة إلى مالكي الآبار من القبائل، ولعل في ذلك ما ينبئ بأثر المبادئ الاجتماعية والاقتصادية المبنية على التشارك والمصلحة العامة التي أسسها الإسلام في مقابل تقهقر الروح القبلية. وبما أن حفر الآبار وامتلاك الماء كان مبعث رفعة وحظوة للقبيلة أدى ذلك إلى التحاسد بين القبائل وكان يسفر في بعض الحالات عن إحداث مشاكل ومصادمات داخل المجتمع المكي[٤].

ومصادر الماء تلك كان يتم بيعها وشراؤها أو يقوم شخص بهبتها إلى آخر، وقد يكون ذلك بين قبيلة وأخرى، حيث تنتقل البئر من القبيلة الأولى

١- غباشي، ج ١، ص ٦٨- ٦٩.
٢- الأزرقي، ج.٢، ص ٢١٤ و ٢٢١.
٣- نفسه، ص ٢٢٢.
٤- نفسه، ج٢، ص ٢٢٢.

التي كانت تمتلكه إلى القبيلة الثانية المالكة الجديدة.[١] ولهذا نجد الأدبيات التاريخية تركز على التعرف على القبيلة التي تكون صاحبة بئر من الآبار[٢].

الظاهر أن عملية حفر الآبار اتخذت وتيرة متسارعة غداة حفر عبد المطلب لزمزم لدرجة أن المياه أصبحت وافرة " فكثرت المياه بمكة ... حتى روي القاطن والبادي"[٣] . أما كمية المياه المتوفرة في هذه الآبار فكانت تتراوح بين الكثرة والقلة حسب تساقطات مياه الأمطار ومنها ما كانت تنضب مثل حدث لبئر زمزم[٤] و بئر اليسيرة[٥]. فبئر زمزم غار في بعض الأزمنة مثل ما حدث سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٧ م وسنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م وتغير الأمر سنة ١٢٥حيث كثر ماء زمزم بكثرة التساقطات خلال هذا العام.[٦] . ويقال حسب ما يورده صاحب كتاب الاستبصار أن "ماء زمزم غار سنة ٣٢٠هـ " وعطلت أياما، وكانت تحجم ليجتمع فيها الماء"[٧]. بل ذكر أيضا أنها نضبت لدرجة أن رجلا نزل إليها وصلى فيها ركعتين[٨]. وعند ندرة الماء كان أهل مكة يتضررون بطبيعة الحال وبالأخص خلال موسم الحج. ويورد الأزرقي وصفا لمشاكل قلة الماء خلال موسم الحج إذ ارتفع سعر الماء ارتفاعا باهظا، حيث وصلت "الراوية ... في

١- نفسه، ج٢، ص ٢٢١ ؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٦.

٢- الأزرقي، ج ٢، ص ٢١٤.

٣- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢١ ؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٦.

٤الأزرقي،ج ٢ ص ٦١.

٥- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٢٠ ؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٦.

٦- الأزرقي،ج ٢، ص٦١

٧- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية، ١٩٨٥، ص ٢٢.

٨- نفسه.

الموسم عشرة دراهم"[١]. وقد تجاوزت الراوية هذا السعر خلال النقص الكبير للماء خلال موسم ٢٢٨هـ/٨٤٢ م إذ "بيعت الراوية بأربعين درهما".[٢] وكانت فترات الجفاف تفاقم مشكل الماء في مكة حيث يتضرر أهل البلد بالأخص خلال موسم الحج الذي تتوافد فيه أعداد هائلة من الحجيج. فكان أهل مكة والحجيج يستسقون ويلحون في الدعاء من جراء انحباس المطر.[٣]

٢– العيون والبساتين وتأهيل المجال الجغرافي:

بجانب هذه الآبار تم التنقيب داخل المنطقة عن موارد مائية أخرى تمثلت في العيون التي أجريت داخل مكة. وأتاح إجراؤها ظهور بساتين ومجاري مائية كان يستفيد منها المكيون لاستعمالهم الشخصي او لسقاية دوابهم. ويوضح الجدول الاتي البساتين و العيون والجداول المائية التي كانت بها مع العلم أن كل بستان كان به عين و مشرع[٤] للسقاية، مما يدل على وفرة الماء في هذه الأراضي الزراعية :

١- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٣١.

٢- غباشي، ج ١، ص ٨٤.

٣- البلاذري، أنساب، ج ١، ص ٨٣؛ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص٤٨٣؛الفاسي، العقد، ج ٦، ص ٣٣٣.

٤- مشارع الماء: هي الفرض التي تشـرع فيها الواردة. والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدا لا انقطاع له، ويكون ظاهرا معينا لا يسقى بالرشاء؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة "شرع".

اسم البستان أوالحائط	مورده المائي	انتاجه الزراعي	من أقام البساتين والعيون
الحمام	عين	النخل والزرع	معاوية بن أبي سفيان
خيف الأرين	مشرع للسقاية	عجوة	"
عوف	عين ومشرع	النخل	"
الصفي	عين ومشرع	النخل	"
مورش	عين ومشرع	النخل والزرع	"
خرمان	عين ومشرع وخزان مائي	النخل والزرع	"
مقيصرة	عين ومشرع	النخل	"
حراء	مشرع	النخل	"
ابن طارق	عين ومشرع	النخل	"
فخ	ـ	ـ	"
بلدح	ـ	ـ	"
ابن العاص	عين	ـ	سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص
سفيان	عين	ـ	غير معروف[1]

١- الأزرقي، ج ٢، ص، ٢٢٧- ٢٣٠.

ا- مواضع البساتين والحوائط

اسم الحائط	موضعه
الحمام	بالمعلاة إلى موضع بركة أم جعفر
عوف	من زقاق خشبة دار مبارك التركي ودار جعفر بن سليمان وهما اليوم من حق أم جعفر ودار مالي الله، وموضع الماجلين ماجلي أمير المؤمنين هارون الذي بأصل الحجون [١].
الصفي	من دار زينب بنت سليمان التي صارت لعمرو بن مسعدة ، والدار التي فوقها إلى دار العباس بن محمد التي بأصل نزاعة المشوى[٢].
مورش	دار محمد بن سليمان بن علي ودار لبابة بنت علي ودار ابن قثم الواتي بفم شعب الخوز[٣]
خرمان	وهو من ثنية أداخر إلى بيوت جعفر العلقمي وبيوت بن أبي الرزام.[٤]
مقيصرة	موضعه نحو بركتي سليمان بن جعفر إلى قصر أمير المؤمنين المنصور أبي جعفر[٥]
حراء	مصاقب لجبل حراء والجبل يشرف عليه[٦]
ابن طارق	أسفل مكة[٧]
فخ	فخ[٨]
بلدح	بلدح
ابن العاص	بلدح[٩]
سفيان	غير مذكور[١]

١- الأزرقي ، ج ٢، ص ٢٢٨.
٢- نفسه.
٣- نفسه، ص ٢٢٩.
٤- نفسه.
٥- نفسه.
٦- نفسه، الهامش ٤.
٧- نفسه.
٨- نفسه.
٩- نفسه.

لا ذكر في المعلومات التي نتوفر عليها لبساتين أو أراض زراعية مماثلة قبل الفترة الإسلامية، إذ ان هذه الاشارات تطفو فجأة مع خلافة معاوية مع وجود إشارة إلى تعمير الأراضي خلال خلافة عمر بن الخطاب.[٢] ومعاوية بن أبي سفيان هو الذي "أجرى في الحرم عيونا واتخذها أخيافا فكانت حوائط".[٣] غير أن ما قام به معاوية من إعداد بعض مجال مكة وتهيئته للزراعة أمر قد يكون طغى على أعمال من سبقه وأخمله. فلا غرو أن معاوية أجرى عشرة عيون في مكة تمكن من خلالها من تعمير عشرة بساتين منتجة وفي الوقت نفسه كانت بها موارد مائية لساكنة مكة تغدي الناس والمواشي. أنتج النشاط الزراعي غلات فلاحية من تمر وحنطة ولسنا ندري هل كانت تمة منتوجات أخرى مخصصة للاستهلاك الشخصي لم يتم ذكرها نظرا لقلتها. كما ان مصادرنا لا تذكر شيئا عن كيفية تصريف هذه المنتجات داخل المجتمع المكي ومدى مساهمتها في النشاط التجاري المحلي، رغم توفر الإشارة إلى بيع المنتجات الزراعية محليا.[٤]

واستمر الأمر على هذا الحال إلى غاية خلافة هارون الرشيد حيث انقطعت هذه العيون لعدم الاهتمام بها وصيانتها وربما لقلة مخزون المياه الجوفية التي كانت تغذي هذه العيون. فأمر الرشيد بصيانة واستصلاح بعض من ا لعيون العشر السابق ذكرها، لا نعرف عددها وتم تصريف مياهها في

=

١- الأزرقي، ج ٢ ص٢٢٩.

٢ - نفسه، ج٢، ص٢٢٨.

٣- نفسه ص٢٢٧، الخيف ماارتفع عن موضع مجرى السيل ومسيل الماء، وانحدر عن غلظ الجبل، والجمع أخياف، ابن منظور، لسان العرب، مادة "خيف".

٤- نفسه، ج ٢ن ص ٢٢٨.

عين واحدة سميت بالرشا[١] . وقد يدل تجميع هذه العيون على قلة صبيبها وعلى نقص الموارد المائية بمكة لأن مياه الرشا وجه جزء منه للمسجد الحرام من أجل سقاية الحاج. حيث تم تجميع هذه المياه في بركة بالمعلاة سميت باسم الخليفة العباسي هارون. ومن أجل توفير الماء للحرم غذت مياه هذه البركة عبر قنوات بركة أخرى عند المسجد الحرام.[٢] والظاهر أن هذا العمل لم يسفر عن حل لمشكل قلة الماء فكان الحجيج يجدون عنتا كبيرا في الحصول على الماء الذي بلغ أثمانا باهظة، حيث "أن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم أو أكثر" [٣]. وتكفلت عام ١٩٤ ه/ ٨٠٩ م بحل مشكل الماء بالحرم إحدى نساء البلاط العباسي، وهي زبيدة أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر ابن الخليفة العباسي المنصور، فهي التي أنفقت أموالا طائلة من أجل توفير الماء في الحرم وجندت من أجل ذلك مجموعة من المهندسين انتهى عملهم بتجاوز ما أنجزه أسلافهم "فعملت عينها هذه بأحكم ما يكون من العمل، وعظمت في ذلك رغبتها"[٤]. حيث أجرت عيونا من "الحل" "من بينها عين من "المشاش"[٥] على الرغم من وجود تضاريس مرتفعة من جبال كانت تعوق انسياب الماء لكي يصل إلى

١- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٣٠.

٢- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٣٠؛ غباشي، ج ١،ص ٧٨.

٣- الأزرقين ، ج٢، ص ٢٣٠- ٢٣١.

٤- نفسه، ج ٢، ص ٢٣١، من النسوة اللائي اهتمت بتوفير الماء بكة نجد زينب بنت سليمان التي حفرت بئرا على باب شعب المتكا، الأزرقي،ج ٢،ص ٢٩١، وأم المتوكل التي مولت مشروع توفير الماء من عرفة إلى مكة سنة ٢٣٦هـ/٨٢٠ م، وأم المقتدر بالله التي عمرت بعض البرك بعرفة ومكةحوالي سنة٣١٥هـ/٩٢٧ م، غباشي، ج ١،ص ٨٥- ٨٦.

٥- المشاش" بالضم: يتصل بجبال عرفات جبال الطائف وفيها مياه كثيرة أوشال وعظائم قني منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة"، ياقوت، ج ٥،ص ١٣١.

الحرم.[١] وبنت لتجميع المياه عددا من البرك كانت تتغذى أيضا بمياه السيول لتجميع الماء في أوقات التساقطات المطرية. وأجرت كذلك عيونا من حنين عبر قنوات واشترت بستان حنين وحولت عينه إلى البركة، وهي بركة أم جعفر، بل وحولت البستان إلى سد يجتمع فيه السيل عند المطرلتخزين المياه[٢].

مما لا شك فيه أن ما قامت به زبيدة كان عملا عظيما ما فتئ البلد وأهله يستفيدون منه.[٣]غير أن المعلومات التي بين أيدينا تركز اهتمامها بالأخص على توفير الماء لساكنة مكة وللحجاج. ولا وجود لإشارة إلى الحوائط أو البساتين مما قد يوحي بتراجع في المجال الزراعي. وهذا الاحتمال يمكن الاستدلال عليه بأن العيون التي أجراها معاوية انقطعت رغم أن الرشيد أحيى بعضها وأن بعض الحوائط تم تحويلها إلى خزان للمياه من أجل توفير الماء للساكنة من قبيل ما حدث لحائط حنين. ويرجح عادل محمد نور غباشي أن أعمال زبيدة لم تنحصر في ما سلف ذكره بل عملت على صرف ماء عين النعمان في قناة إلى جبل الرحمة بعرفة، فصرف الماء من "عين النعمان إلى جبل خلف المازمين، ثم منه إلى مزدلفة، ثم تسير القناة إلى أن تصل إلى جبل خلف منى فتصب عند ذلك في بئر عظيمة مطوية تسمى بئر زبيدة".[٤]

ومن المحتمل أن مشروع توفير الماء الذي ألحت زبيدة على إنجازه في مكة قد استغل في سقي بعض المساحات الزراعية أو بعض البساتين، غير أن المصادر المتوفرة لا تذكر إشارات تفيد ذلك. فالأزرقي نفسه يعرج في نهاية

١- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٣١؛ غباشي، ج ١،ص ٧٩.

٢- الأزرقي ج ٢، ص ٢٣١ ؛ مالكي، مرافق، ص ص ٦٤- ٦٥، غباشي، ج ١،ص ٧٩.

٣- مالكي، ص ٦٥.

٤- غباشي، ج١، ص٨١- ٨٢.

حديثه عن الحوائط على ما قامت به زبيدة والمأمون وينهي حديثه عن الأراضي الزراعية عند ذلك. وتتجه المعلومات التي بين أيدينا عن الفترة التالية إلى غاية القرن الثالث الهجري في السياق ذاته؛ إذ لا ذكر للحوائط ولا للمنتوجات الزراعية. وينصب الاهتمام على استصلاح العيون أو بعض البرك بهدف مواجهة مشاكل نقص الماء بمكة.[١] ومانجده من منشآت مائية هو ماقام به الخليفة المأمون عام ٢١٠هـ/٨٢٦م عندما أمر عامله على مكة صالح بن العباس بإنشاء عدد من البرك لأهل مكة السفللى والثنية وأجيادين والوسط نظرا لأنهم كانوا يجدون عنتا في الحصول على الماء من بركة أم جعفر بالمعلاة.[٢] ومن أجل ذلك أجري الماء من بركة أم جعفر و استعمل ما فضل من مائها في قناة تصب في بركة البطحاء عند شعب يوسف في وجه دار ابن يوسف ثم " يمضي إلى بركة عند الصفا ثم يمضي إلى بركة عند الحناطين ثم يمضي إلى بركة بفوهة الثنية دون دار أويس ثم يمضي إلى بركة عند سوق الحطب بأسفل مكة يمضي ... إلى ماجل أبي صلاية ُ إلى الماجلين اللذين في حائط طارق في أسفل مكة".[٣] وقد يفيد وجود حائط طارق المذكور في النص أن هذا البستان كان يستفيد من هذا الماء. ونجد أيضا ما قام به اسحاق بن أبي سلمة الصائغ أحد المهندسين الذي أرسله الخليفة العباسي المتوكل على الله عام ٢٤١ه/٨٥٥م لبناء بركة الحصحاص بين الشهداء والتنعيم وهي بركة حول إليها ماء فخ لتغذيتها غير أنها ما لبثت أن جفت وتوقف العمل بها لسبب نجهله[٤] قد يتمثل في الجفاف.

١- انظر مالكي، ص ٦٦- ٦٧؛ غباشي، ج ١، ص٨٤- ٨٦.
٢- الأزرقي، ج ٢ ، ص٢٣٢.
٣- الأزرقي، ج ٢، ص ٢٣٢ ،غباشي، ج ١،ص ٨٢- ٨٣.
٤- غباشي، ج ١ص ٨٤.

٣- السيول وأثرها على مكة:

لا شك أن المناخ يؤثر بشكل أساسي في الغطاء النباتي ، فمناخ مكة الجاف والقاحل إضافة إلى قلة الماء أثرعلى الغطاء النباتي بالمنطقة. و بات الغطاء النباتي ومنتوجات البساتين رهنا بوفرة الماء وندرته. وهذا ما حدث على سبيل المثال سنة ٨٨ هـ /٧٠٦م خلال خلافة عبد الملك بن مروان في ولاية عمر ابن عبد العزيز على الحجاز إذ أدت كثرة الأمطار المتساقطة إلى خصوبة الأرض فتوافرت النباتات ومن ثم من المحتمل كان الإنتاج الزراعي وفيرا.[١]

و للمحافظة على الغطاء النباتي بما يجلبه من جمالية في المكان وتلطيف للجو كان بعض أهل مكة يمتنعون عن قطع أشجار المدينة لتوسيع منازلهم. ومن شدة محافظتهم عليها وهي محافظة على بيئتهم كانوا يبنون منازلهم من غير قطع الأشجار التي قد توجد في المساحة المبنية. وكان لا يلجأ إلى قطع الأشجار إلا عندما تدعو الضرورة الملحة إلى ذلك عند البنيان أو عند التوسعة.[٢]

على الرغم من أن مجال مكة كان بحاجة متزايدة إلى الماء، فإن كثرة التساقطات كانت تؤدي إلى حدوث أضرار من جراء الفياضانات والسيول الجارفة. أما السيول التي عرفتها مكة والأضرار التي ترتبت عنها فيوضحها الجدول الآتي:

١- الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤٣٧- ٤٣٨.

٢- البلادري، أنساب،ص ٥٨.

ا– سيول الفترة الجاهلية:

اسم السيل	تاريخه	الأضرار التي تسبب فيها
فارة	الفترة الجاهلي من غير تحديد	"هجم على أهل مكة ودخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة ورمى بالشجر بأسفل مكة" كما تسبب أيضا في غرق وموت مجموعة من أهل مكة.[١]
مجهول	الفترة الجاهلية	غطى من شدته ما يوجد بين الجبلين أي المال المكي.[٢]

ب– سيول الفترة الإسلامية:

إسم السيل	تاريخه	الأضرار التي تسبب فيها
أم نهشل	خلافة عمر ابن الخطاب	دخل المسد الحرام واقتلع السيل مقام إبراهيم عليه السلام وذهب به يحث وجد في أسفل مكة وتسبب في موت بعض ساكنة مكة، من بينهم أم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية، التي نسب إليها السيل.[٣]
الجحاف والجراف	سنة ٨٠ هـ/٦٩٩ م خلافة عبد الملك	جرف الحجيج وأمتعتهم، وأحاط بالكعبة وهدم الدور وقتل ناسا كثيرا . ومن شدته اعتصم الناس بالجبال.[٤]

١- ألزرقي، ج ٢، ص١٦٦- ١٦٧.

٢- الأزرقي، ج ٢، ص١٦٧.

٣- الأزرقي، ج ٢، ص ١٦٧؛البلري، فتوح، ص٦١.

٤- الأزرقي، ج ٢، ص١٦٨؛ البلاذري، فتوح، ص ٦١. وصور الشاعر عبد الله بن أبي عمارهذه الكارثة فيما ذكره الأزرقي بقوله :

لم تر عيني مثل يوم الإثنين أكثر محزونا وأبكى للعين

إذ خرجت المخبئات يسعين سواندا في الجبلين يرقين

أما البلاذري فروى الشعر كما يلي: لم تر غسان مثل يوم الإثنين أكثر محزونا وأبكى للعين

إذ ذهب السيل بأهل المصرين وخرج المخبءات يسعين

شواردا في الجبلين يرقين

إسم السيل	تاريخه	الأضرار التي تسبب فيها
	ابن مروان	
المخبل	٨٤هـ/٧٠٣ م	دخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة وتعرض أهل مكة بسبب السيل إلى وباء حيث أصيبوا بمرض في ألسنتهم وأجسادهم.[١]
أبي شاكر	١٢٠هـ/٧٣٧ م خلافة هشام بن عبد الملك	غير محددة.[٢]
مجهول	١٨٤هـ/٨٠٠م خلافة هارون الرشيد	دخل المسجد الحرام وجرف الناس وأمتعتهم.[٣]
سيل ابن حنظلة	٢٠٢ هـ /٨١٧ م خلافة المأمون	وصلت المياه قريبا من الحجر الأسود وهدم مجموعة من دور أهل مكة وجرف كثيرا من الناس. وأصيب بعده أهل مكة بوباء ومرض شديد توفي الكثير بسببه.[٤].
مجهول	٢٠٨ هـ/٨٢٣ م خلافة المأمون	"أحاط بالكعبة واحاط بالحجر الأسود ورفع القام من مكانه لما خيف عليه أن يذهب به فكبس المسجد و الوادي بالطين والبطحاء. وقلع صناديق الأسواق ومقاعدهم وألقاها بأسفل مكة وذهب بأناس كثير وهدم دورا كثيرة مما أشرف على الوادي."[٥]
مجهول	٢٢٥ هـ/ ٨٣٩ م	غير مذكورة.[٦]
مجهول	٢٤٠ هـ/٨٥٤ م خلافة جعفر المتوكل	" هدمت منازل كثيرة وأن السيل حمل في مسجد رسول الله (ص) وإبراهيم نبي الله (ص)المعروف بمسجد الخيف،فهدم سقوفه وعامة جدرانه وذهب بما فيه من الحصباء فأعراه، وهدم من دار الإمارة بمنىوما فيها من الحجرجدرات وعدة

١- ألأزرقي،ج ٢،ص ١٧٠؛ البلاذري، فتوح،ص ٦٢.
٢- البلاذري، فتوح، ص ٦٢.
٣- الأزرقي، ج٢، ص١٧٠.
٤- الأزرقي، ج٢، ص١٧٠ ؛ البلاذري، فتوح، ص ٦١- ٦٢.
٥- الأزرقي، ج٢، ص١٧٠.
٦- الأزرقي،ج ٢، ص ٦١.

إسم السيل	تاريخه	الأضرار التي تسبب فيها
		أبيات، وهدم العقبة المعروفةبجمرة العقبة وبركة الياقوتة وبرك المأزمين والحياض المتصلةبها، وبركة العيرة."[1]
مجهول	٢٨٠/٢٧٩ هـ/٨٩١–٨٩٢ م	سيل عظيم .[2]
مجهول	٢٩٧هـ/٩٠٩ م	غرقت اركان البيت الحرام الأربعة وفاضت بئر زمزم مما أضر بالحجاج[3]

يتضح بجلاء أن كل من كان يلي أمور مكة لايمك إلا أن يتصدى لمخلفات هذه السيول ويعمل على الحد من آثارها. فبعد الأضرار التي خلفها سيل فارة عمدت قبيلة خزاعة التي كانت تلي أمور مكة إلى بناء موانع أدارتها بالبيت العتيق من أجل تحصينه وحفظه من آثار السيول.[4] ولم تتوان السلطات الإسلامية المتعاقبة عن تحصين مكة وأهلها من أضرار السيول. فعند سيل أم نهشل في خلافة عمر بن الخطاب أمر الخليفة الذي أفزعه الحادث ببناء سدود وحواجز و ضفائر في أعلى مكة وفي أسفلها من أجل حمايتها ولدفع السيل عن المسجد الحرام وهو ما يسمى" بردم عمر بن الخطاب" الذي بني بالصخور العظام وبالخشب. وهي موانع بقيت شاهدة حتى

=

١- نفسه، ج ١، ص٢٩٨- ٢٩٩.

٢- نفسه، ويشير الأزرقي إلى معاينته سنة ٢٨١ ه لارتفاع منسوب مياه زمزم بسبب كثرة الأمطارالتي تهاطلت في العامين السابقين.

٣- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، الدار البيضاء، بيروت١٣٩٣/١٩٧٣، ج ٤، ص ٣٠٧.

٤- الأزرقي، ج ٢ ص ١٦٦- ١٦٧.

زمن الأزرقي يالذي عاينها[1]. و كان وقع ماحدث بمكة خلال سيل الجحاف او الجراف شديدا على عبد الملك بن مروان فخصص مالا كثيرا لإصلاح آثار الكارثة وأمر عامله على مكة بان يتولى ذلك وبعث مهندسا متخصصا في بناية السدود و الحواجز. فبنيت حواجز واقية للدور الموجودة بالقرب من الوادي ولم تستثن دار كبيرة ولا صغيرة، لدرجة أن القدر المالي لتحصين بيت كان يفوق بكثير ثمن البيت نفسه كما تم تحصين المسجد الحرام. وتم إقامة حواجز أخرى على مداخل الأحياء السكنية لتحصين البيوت وبقيت هذه الحواجز والموانع ماثلة إلى زمن الأزرقي الذي عاينها في الجهة اليسرى والسفلى من مكة[2]. وأولى المأمون اهتماما خاصا لما حدث بمكة عند سيل سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣ م إذ أفرد قدرا ماليا كبيرالإصلاح الأضرار التي تعرضت لها مكة. فأمر بأن يبطح المسد ويعزق وادي مكة. والظاهر أنه لم يتم عزق الوادي إلا في سنة ٢٣٧هـ/٨٥١ م حيث قامت بذلك أم الخليفة جعفر المتوكل وأنفقت في ذلك إثنا عشر ألف درهم.[3]

٤- الماء والمجال الجغرافي في الآثار الأدبية:

ولأهمية الماء الحيوية في الحياة و لندرته في مكة وما استتبعه ذلك من تفاخر بين القبائل فإن التنافس بينها امتد إلى حفر الآبار وامتلاك الماء والتباهي بذلك وهو ما سجلته الآثار الأدبية من رجز و قصيد. فكانت القبائل

١- الأزرقي، ج ٢ ص ١٦٧- ١٦٨؛ البلاذري، فتوح، ص ٦١، ضفيرة مثل المسناة المستطيلة في الأرض فيها خشب وحجارة؛ لسان العرب، مادة ضفر.

٢- الأزرقي، ج ٢ ص ١٦٩؛البلاذري، فتوح، ص ٦٢.

٣- الأزرقي، ج ٢ ص ١٧٠- ١٧١.

تتداوله رجالها ونساؤها وهو ما يؤكد الأهمية المحورية لامتلاك الماء في مجال صحراوي. ونورد في هذا المقام ما قيل في الآبار وفي توفير الماء للحجاج أو في التباهي بامتلاكه.

قيل في بئر العجول الذي ينسب حفره لقصي بن كلاب :

نروي على العجول ثم ننطلـــق   قبل صدور الحاج من كل أفق

إن قصيا قد وفى وقد صـــدق   بالشبع للناس وري مغتبــــق

ويتضح أن هذا المورد المائي كان يتمتع بأهمية خاصة جعلت القبائل العربية عندما كانت تصل إلى مكة ثم إلى البئر تتراجز عندها.[١]

وعندما كثر الماء بمكة بعد حفر عبد المطلب لزمزم قالت خالدة بنت هاشم في بئر سجلة :

نحن وهبنا لعدي ســـــجله   في تربـــة ذات عذاة ســهله

نروي الحجيج زغلة فزغلة[٢]

وقال عبد شمس بعد أن احتفر بئري خم ورم وسماهما على بئري خم ورم كما فعل كلاب بن مرة :

حفرت خما وحفرت رمـــا   حتى أرى المجد لنا قـــد تما[٣]

وقالت سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف في الطوي الذي ينسب حفرها إلى أبيها :[٤]

إن الطوي إذا شربتم ماءها   صوب الغمام عذوبة وصفاء[٥]

١- الأزرقي، ج٢، ص ٢١٥ ؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٦، ياقوت ،ج ٥،ص ٨٧- ٨٨.

٢- الأزرقي، ج٢، ص٢١٦- ٢١٧؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٦، ياقوت ج٣ص١٩٣.

٣- نفسه، ص ٥٧.

٤- الأزرقي ، ج ٢، ص ٢١٧، ياقوت،ج ٤،ص٥١.

٥- البلاذري، فتوح، ص ٥٧.

وقال الحويرث بن أسد في بئر شفية التي احتفرتها قبيلته بنو أسد بن عبد العزي :

ماء شفية كماء المزن وليس ماؤها بطـــــرق أجن[١]

وقالت أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار في بئر أم احراد التي احتفرها بنو عبد الدار:

نحن حفرنا البحر أم أحراد ليست كبدر النذر والجماد.[٢]

وفي قولها هذا كانت تفخر ببئر قبيلتها على بئر بذر التي كانت لبني هاشم بن عبد المناف فردت عليها صفية بنت عبد المطلب :

نحن حفرنا بـــذر نروي الحجيج الأكبر

من مقبل ومذبـــر وأم أحـــــراد بشـــر

فيها الجراد والذر وقـــــذر لا يذكـــر[٣]

وقال هاشم بن عبد مناف حين حفر بذر:

أنبطت بذر بماء قلاس جعات ماءها بلاغا للناس[٤]

وقال شاعر آخر في بذر:

سقى اللّه أمواها عرفت مكانها

جرابا وملكوما وبذر والغمرا[٥]

١- نفسه، ص ٥٧ ؛ ياقوت، ج٣ ص٣٥٣.

٢- نفسه.

٣- الأزرقي، ج٢، ص ٢١٦- ٢١٧ ؛ البلاذري، فتوح، ص ٥٧ ياقوت، ج١،ص ٣٦١.

٤- ياقوت، ج١ ص٣٦١.

٥- ابن هشام، السيرة،ج ١ ص ١٤٨؛ ياقوت،ج ١ ص ٣٦١.

وقال أحد بني جمح في بئر خلف بن وهب الجمحي :

نحن حفرنا للحجيج سنبله

صوب سحاب ذو الجلال أنزلـــــه[١]

وقال أحد بني سهم في بئر الغمر وهي بئر العاصي بن وائل ويشير ابن الكلبي أن ابن ربعي هو صاحب الأبيات :

نحن حفرنا الغمرة للحجيج

تثج ماء أي مـــــــاء تجيــــــــــج[٢]

وقال آخر:

سقى الله أمواها عرفت مكانها

جراباو ملكوما وبذر والغمــــــرا[٣]

وقال أحد شعراء بني عدي في حفر بئرهم الحفير :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا

بحرا يجيش مـــــــاؤه غزيـــــــرا[٤]

وقال أبو طالب في بئر الصلاصل:

ونسلمه حتى نصرع حوله

ونذهل عن ابنائنا و الحلايــــــــــل

وينهض قوم في الحديد إليكم

نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل[٥]

١- البلاذري، فتوح، ص ٥٧؛ ياقوت،ج ٢ص ٢٦١.

٢- البلادري ، فتوح، ص ٥٨ ، ياقوت، ج ٤ ،ص ٢١١.

٣- ابن هشام، ج١ ، ص ١٤٨.

٤- اللاذري ، فتوح، ، ص ٥٨ ، ياقوت الحموي ،ج ٢ ،ص ٢٧٧.

٥- الأزرقي، ج ٢ص٢٢٧.

تشيرهذه النصوص الشعرية السابقة إلى أن امتلاك الماء يعد ميزة خاصة لسكان المجال المكي، ونعني بهم مختلف الفصائل القبلية. فكان التركيز على وفرة الماء في الآبار وعلى عذوبته وجودته. كما تم التركيز أيضا بشكل خاص على سقاية الحجيج من مياه هذه الآبار وهو ما كانت تتنافس عليه القبائل المكية.

ولم ينحصر تأثير الماء في المجال المكي على العقلية التي صاغت الصور الدلالية السابقة، بل يتضح أن هذه العقلية كانت تعتبره مصدر غنى. ويمثل ما حاج به كفار قريش الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك عندما دعا قوما من المشركين فيهم عبد الله بن أبي أمية دليلا على ذلك فقال أحدهم : "لن نومن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، فإن ماء زمزم ملح ". وقال آخر: "إن لم تفعل هذا فإنا لن نؤمن لك حتى تكون لك بمكة جنة كجنان آل فارس ذات نخيل وأعناب."[١]

يتضح بجلاء من هذه المطالبات النظرة التي كان ينظرها الإنسان المكي للماء داخل المجال الذي يعيش فيه، وأنه يشكل في حد ذاته تميزا خاصا لمن يمتلكه أو لمن يستطيع توفيره. وضمن العلاقة الوجودية بين الماء والثروة الزراعية يندرج الطلب الثاني حيث لا يمكن أن يتحقق إلا بتوفر هائل للماء من أجل الحصول على الضياع الغنية التي كانت للملوك الساسانيين ويركز صاحب القول على وجود الجنة بمكة التي من المستبعد بالنسبة له أن تقوم بها بساتين وجنان على الطريقة الفارسية.

١- البلاذري، أنساب، ج ١، ص ١٤٥ ؛ وانظر كذلك الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت دار الفكر، ١٤٠٥/١٩٨٤، ج ١٥، ص ١٦٤- ١٦٦.

خاتمـــة:

يتضح مما سبق المكانة التي كانت للماء داخل المجال الجغرافي المكي بسبب ندرته وبسبب الظروف المناخية والجغرافية الجافة بالمنطقة. فلم يأل أهل مكة جهدا في البحث عن الماء وجعلوا من توفيره أمرا جوهريا في وجودهم بالمنطقة وفي كيانهم وفي حياتهم. كما اهتمت السلطة الإسلامية بمشكل الماء بالمدينة وعملت جاهدة لإيجاد الحلول لتوفير هذا العنصر الحيوي في مجال مكة، و لتحصين المدينة من الأضرار التي كانت تتسبب فيها السيول. وكانت قلة الغطاء النباتي نتيجة طبيعية للمناخ الجاف ولقلة الماء. ونظرا لذلك لم يعتمد المكيون على الزراعة بشكل محوري في حياتهم، بل اعتمدوا بالأساس على التجارة سواء داخل مكة أم خارجها عبر رحلات لقوافل تجارية كانت تجوب ا لصحراء، إذ غدت المدينة أهم مركز تجاري بالمنطقة. ومما زاد في أهميتها التجارية وجود الكعبة بها، إذ باتت ملتقى موسميا يتوافد إليه الحجيج ، مما شكل موردا ماليا كبيرا للمكيين. ولعل هذا هو مغزى الشطر الثاني من دعاء إبراهيم عليه السلام، الذي بدأه بأنه أسكن من ذريته "بواد غير ذي زرع". إذ سأل الله في دعائه قائلا: "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". فمكة تستقبل سنويا أعدادا كبيرة من الحجيج ومن المعتمرين، ورغم ظروف المناخية الصعبة في هذا المجال الجغرافي يهوي إليه الناس أفرادا وجماعات وهو ما يوفر للمدينة نشاطا تجارية كبيرا عرف منذ القدم، إذ تأتيها المنتجات والخيرات من كل

مكان. فأصبحت مهوى ليس للناس فقط، بل للثمرات أيضا. والثمرات التي ينتجها المجال المكي قليلة. ومن ثم يظهر بوضوح ذلك الترابط والتصوير الفني الدقيق والإعجاز القرآني الذي تتضمنه الآية الكريمة التي بدأنا بها هذا البحث، وهو ما يدل على ذلك الترابط بين الماء والمجال الجغرافي في مكة المكرمة.